اسم الكتاب: الإسلام المبكّر في التواريخ السريانية

المؤلف: محمد مجيد بلال

عدد الصفحات: ٣٦٨

الطبعة: الأولى ٢٠١٥م

الناشر: دار الرافدين ـ بيروت

© جميع حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت ص.ب 25/309 الغبيري
تلفاكس : 541980 1 961+ **خليوي ،** 03/445510
e-mail , daralrafidain@yahoo.com

الإسلام المبكّر
في
التواريخ السريانية

دراسة مقارنة بين تاريخ الطبري وتاريخ ميخائيل الكبير

مُحمَّد مجيد بلال

الطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

هذا الكتاب، الذي نضعه اليوم بين يدي القارئ الكريم، يتناول موضوعاً حسّاساً لم يتطرق له الباحثين إلا لماماً، وأكثر الظن كان الباحثون يتحاشون الخوض في غمار هذا الموضوع لكثرة الإشكالات فيه.

فالتاريخ الإسلامي، كما يعتقد بعض المؤرخين، لم يُكتَب بأيدي المسلمين، والبعض الآخر يدّعي أن المدوّنات الإسلامية قد تكون حُرِّفَت أو أُتلِفَتْ، وذلك لمسيرة الإسلام الأولى التي تعرضت لعواصف سياسية عدة، داخلية وخارجية، إلا أن هناك حقيقة تثبتها هذه الدراسة، بأن للسريان فضل وأهمية في تدوين التاريخ الإسلامي، والباحث هنا يدافع في مكان ما عن هذه التواريخ، وأحياناً يشكك فيها في مواضع أو نقولات معينة.

والتاريخ عبارة عن منظومة معقدة، يعيش الإنسان إسقاطاتها وتبعاتها في عصورٍ لاحقة. من هنا تبرز أهمية هذا الكتاب.

والمؤلف بذل جهوداً كبيرة في البحث والمقابلة بين النصوص، واستلهم من حوالى مئتي مصدر، ولكن إشادة المختصين بأهمية البحث العلمية شجّعتنا على نشر الكتاب.

وهذا العمل في الأصل، هو رسالة ماجستير في التاريخ السرياني، أُعدّت في جامعة القديس يوسف في معهد الآداب الشرقية ـ بيروت، وقد أشرف على هذه الرسالة الأب سليم دكاش اليسوعي، وقد نالت درجة جيدة جداً مع التنويه.

دار الرافدين

بيروت ـ لبنان

التمهيد

إنَّ الاهتمام بدراسة التاريخ على مرِّ العصور، عاملٌ مهمٌ ومؤثرٌ في التقدُّم الإنساني، خاصَّة وأنَّ الحضارة تراثٌ انسانيّ تتقاسمه الجماعات الإنسانيَّة على مختلف مشاربها؛ لذا، وُجب علينا النظر إليه نظرة موضوعيَّة لنتعلَّم من تجاربهِ. والتاريخ لم يعد مجرَّد حكاية، بل هو صاحب الدَّور الأساس في جميع العلوم الإنسانيَّة. والمجتمات البشريَّة بدورها أصبحت تتمايز على أساس كمّ، ونوع، الثقافات المتراكمة. من هنا، جاء دور الحضارة السريانيَّة التي كانت دائماً همزة الوصل بين الثقافات والحضارات الأخرى في منطقة المشرق.

لقد كتب الكثير عن السريان، وفضلهم على الحضارة العربيَّة، لكنني أردت أنْ أزيد وأكتب حول موضوع جديد، لم يتطرَّق له قبلي، إلاَّ عدد قليل من الباحثين والدارسين، فكان دراسة التاريخ الإسلامي في التواريخ السريانيَّة، وإجراء مقارنة بينها وبين التواريخ الإسلاميَّة العربيَّة. وتحديداً الموضوع التالي: «**التأريخ الإسلاميّ دراسة مقارنة بين تاريخ ميخائيل الكبير وتاريخ الطبريّ حتى نهاية العصر الأمويّ**» وقد تطلَّب هذا الموضوع المزيد من الجهد، والعمل، والاطِّلاع الواسع، وذلك لإيماني بأهميَّة ما قدَّمه السريان من فضل لا يمكننا إلاَّ التطرُّق إليه، والتذكير به دائماً. لذا، وجب علينا أنْ لا نتجاهل فضل السريان على الحضارة الإسلامية. لقد حاولت جاهداً أنْ أجمع وأنسِّق بين كلِّ شاردة

وواردة عن هذا الموضوع، محاولاً أن أكون منصفاً في التطرُّق إلى كلّ النواحي المختلفة، ومعالجة مختلف الجوانب بدقَّة، وموضوعيَّة، عارضاً الأحداث بكلّ أمانة.

لا بدّ لنا في البداية، ونحن نتناول هذا الموضوع المهمّ في هذه الدراسة، من أنْ نستعرض باختصار الوضع السياسي والديني، قبيل ظهور الإسلام في المناطق التي نشأت فيها الكنيسة السريانيَّة منذ فجر المسيحيَّة، والأماكن التي نشأ فيها الإسلام وانتشر بعد نَيِّف وستمائة سنة، لنتوصَّل إلى معرفة أفضل عن ملتقى الفريقَيْن السرياني والإسلامي في الخطوط العريضة لتاريخهم المشترك، ولبعض عقائدهم الدينيَّة.

السريان

السريان اليوم، هم أعضاء كنيسة إنطاكيا السريانيَّة الأرثوذكسيّة، السُّلالة المباشرة لأجدادهم السكَّان الأصليين لبلاد سوريا، ولبنان، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وما بين النهرين العُليا والسُّفلى أي العراق[1]. كانت لغتهم الآراميَّة السريانيَّة لغة سوريا القديمة التي تكلّمها السَّيد المسيح[2]. وهي اللُّغة التي كانت مُهيمنة على تلك المنطقة عند ظهور الإسلام، وإلى جانبها اللّغة العربيَّة الّتي كانت لغة القبائل العربيَّة النازحة من الجزيرة العربيَّة والمستقرَّة في إطارها العشائريّ منذ أمد بعيد في المناطق الشرقيَّة من سوريا، والمناطق الغربيَّة، والشماليَّة من العراق. واستعملت تلك القبائل إلى جانب لغتها العربيَّة اللّغة السريانيَّة في الطقس الكنسي، بحكم كونها جزءاً لا يتجزأ من كنيسة إنطاكيا

---

(١) رشدي، تاريخ ميخائيل السرياني، ١٢؛ ابن العبريّ، تاريخ الزمان، ١٢٤؛ عطية، تاريخ المسيحيّة الشرقيّة، ص٢٤٥؛ عبده، السوريون والحضارة السريانية، ص٨.

(٢) زرازير، السريان في لبنان، ص٤.

السريانيَّة. وإلى جانب هاتين اللّغتين، كانت هناك اللّغة اليونانيَّة، اللّغة الرسميَّة للدَّولة البيزنطيَّة المحتلة لتلك البلاد، ولغة بعض سكَّانها الَّذين هم من أصل إغريقي، وكانوا قاطنين في المدن السوريَّة الكُبرى؛ أمَّا اللّغة الفارسيَّة، فقد كانت لغة الدَّولة الساسانيَّة[1].

انقسام الكنيسة المسيحيَّة على ذاتها

أطلّ القرن السابع للميلاد على كنيسة انطاكيا السريانيَّة وهي تكافح باذلة قُصارى جهدها في الحِفاظ على كيانها، وما ورثته من آبائها من تراث سرياني آرامي، وعقائد مسيحيَّة، تسلَّمتها من تلاميذ السَّيد المسيح وآبائها الروحيين[2]. وقد أنهكت قِواها الاضْطهادات العنيفة التي أثارها ضدَّها اليهود، والممالك الرومانيَّة، والبيزنطيَّة، والفارسيَّة منذ أجيال بحكم موقعها الجغرافي، فقدَّمت عدداً غفيراً من الشهداء عبر العصور. وهكذا، تمرّس أبناؤها في تحمُّل المشقَّات في سبيل التمسُّك بالعقيدة الدينيَّة[3]. كما أنَّ ظهور الآراء المتطرِّفة في قضايا الدِّين وتفاقُم الجِدال الديني العقائدي[4]، كلّ ذلك، كان الدافع لهم إلى التعمُّق بدراسة علم اللّاهوت، وحافزاً للعلماء إلى التتبُّع الفلسفي، فاقترن عِلم اللّاهوت بالفلسفة الّتي أضحت سلاحاً لدحض المزاعم الباطلة، وللدفاع عن صحَّة العقائد الدينيَّة. وقد اشتهر السريان بمحبتَّهم للعِلم، حتى أنَّهم كانوا يؤسِّسون إلى جانب كلّ كنيسة مدرسة. ولمَّا

---

(١) ينظر: الرسالة، ص١٨٥؛ شلبي، أضواء على المسيحيّة، ص٨٦؛ هيل، تاريخ الفكر المسيحي، ص١٥٣.

(٢) عبده، السوريون والحضارة السريانية، ص٢٠.

(٣) أبونا، أدب اللغة الآرامية، ص٥٥؛ عطية، تاريخ المسيحيّة الشرقيّة، ص٢٤٥.

(٤) عطية، م. س.، ص٢٤٥؛ يغوليفسكيا، ثقافة السريان، ص٥٦.

ازدهرت الرهبانيَّة، كانت الأديِرَة بمثابة كلّيات لدراسة العلوم الّلاهوتيَّة وغيرها[1].

وكانت الكنيسة المسيحيَّة قد انقسمت على ذاتها، وأضحت في أماكن عديدة ميدان حروب مذهبيَّة لا هوادة فيها، فولّدت الشكوك، وأضعفت الإيمان في قلوب المؤمنين. كما أنَّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة كانت بعد وفاة قسطنطين الملك الذي تنصَّر في أوائل القرن الرابع للميلاد قد انقسمت إلى معسكرين: المعسكر الغربي، وكانت لغته الّلغة اللاتينية، والمعسكر الشرقي، الذي بدا إغريقياً بلغته وثقافته، فدُعيت مملكته بالدولة البيزنطيَّة، وكان أغلب مناطق الكنيسة السريانيَّة بحكم موقعها الجغرافي، خاضعاً لهذه الدولة البيزنطيَّة، أمَّا بقيَّة مناطقها، فكانت خاضعة للإمبراطوريَّة الفارسيَّة التي كانت لغتها الرسميَّة الّلغة الساسانيَّة[2].

وكانت الدولتان البيزنطية والفارسية على طرفي نقيض وتتنازعان السلطة والسيادة على الشرق، الأمر الذي سبّب استمرار الحروب بينهما.

قانون الإيمان المسيحي

كانت الكنيسة المسيحيَّة على إثر ظهور بعض الآراء الدينيَّة الغريبة عن تعاليمها الساميَّة قد أعلنت قانون إيمانها في المجمعين المسكونيين، مجمع نيقية المنعقد عام ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينيَّة المنعقد عام ٣٨١م. وفي هذين المجمعين حدَّدت أيضاً المناطق الجغرافيَّة الخاضعة دينياً للكراسي الرسوليَّة الثلاثة: روما، والإسكندريَّة، وانطاكية، ثمَّ

---

(١) ابن العبريّ، تاريخ الكنسيّ، ١/ ٤٩.

(٢) رشدي، تاريخ ميخائيل السرياني، ص١٢

للكرسي الرابع كرسي القسطنطينيَّة، وأعلنت في المجمع الأخير أيضاً امتيازات هذه الكراسي الدينيَّة الرسوليَّة بناءً على موقعها الجغرافي ومدى قُربها من مركز السلطة المدنيَّة السياسيَّة.

انقسام الكنيسة السريانيَّة على ذاتها

كانت التنافرات المذهبيَّة بين المسيحيين قد بلغت أوجها، نتيجة الشقاق الذي صدّع جوانب الكنيسة المسيحيَّة عامَّة، والكنيسة السريانيَّة خاصَّة، على إثر مجمَّع أفسس المسكوني الثالث المنعقد عام ٤٣١م[١]، والذي حرَّم نسطور، لزعمه «أنَّ المسيح ذو أقنومين وطبيعتَيْن منفصلتَيْن»[٢]. فالَّذين أخذوا بزعم نسطور من السريان ولم يخضعوا لقرارات مجمع أفسس سُموا نساطرة، فأثارت المملكة البيزنطيَّة الاضطهاد ضدَّهم، فهربوا إلى مناطق المملكة الفارسيَّة فيما بين النهرين السفلى. وبهذا، انقسمت الكنيسة السريانيَّة إلى اثنتين، فالذين كانوا قاطنين غربيّ نهر الفرات، سُمّوا سرياناً غربيين، وكانوا خاضعين دينيّاً للبطريرك الأنطاكي مباشرة. والّذين سكنوا شرقيّ نهر الفرات في مناطق العراق، سُموا سرياناً شرقيين، وأغلبيتهم من النساطرة، ويُستثنى منهم السريان الأرثوذكس الخاضعون للكرسي الرسولي الأنطاكي. وعلى إثر هذا الانقسام الجغرافي، برز انقسام في اللّغة السريانيَّة أيضاً إلى لهجتين غربيَّة وشرقيَّة. وتحمّل السريان الأرثوذكس المضايقات من الدولة الفارسية، ليس فقط كونهم مسيحيين، بل أيضاً لوجود رئاستهم الروحيَّة في إنطاكية حاضرة سوريا القديمة ضمن المنطقة الخاضعة الدولة

---

(١) عبد الحميد، مخطوطة تاريخ ميخائيل السرياني من ميلاد المسيح، ص٤٣؛ أبونا، أدب اللّغة الآرامية، ص٦٢.

(٢) أبونا، م. ن.، ص٥٥؛ عطية، تاريخ المسيحيّة الشرقيّة، ص٢٤٩.

البيزنطيَّة عدوّة الدولة الفارسيَّة، فكانوا يُتَّهمون بولائهم لأعداء الفرس. وعلى إثر تبنّي الدَّولة البيزنطيَّة قرارات مجمَّع خلقيدونيا المُنعقد عام ٤٥١م، أثارت هذه الدَّولة اضطهادات عنيفة ضدّ رافضي تلك القرارات، وفي مقدّمتهم أتباع الكنيسة السريانيَّة الأرثوذكسيَّة، الّتي تحمّل إكليروسها وشعبها معاً أصناف العذاب المختلفة من نفي، وسجن، وقتل، فاستشهد منهم عدد كبير[١].

ومن جملة هذه الاضطهادات، الاضطهاد العنيف الذي أثاره يوسطينوس الأوَّل على إثر جلوسه على عرش الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة عام ٥١٨م، ضد أتباع الكنائس السريانيَّة، والقبطيَّة، والأرمنيَّة، فاضطر البطريرك السرياني الأرثوذكسي مار سويريوس الكبير إلى مغادرة كرسيه البطريركي في انطاكية واللجوء إلى مصر، حيث أقام زهاء عشرين سنة في دار مؤمن قبطي يدبّر الكنيسة بوساطة نوَّابه ورسائله[٢].

ولا بدَّ أنْ نذكر هنا أنَّه في أوائل القرن السابع اعتلى عرش الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة (٦١٠ ـ ٦٤١م) الإمبراطور هرقل، فبعد أنْ انتصر على الفرس، واستولى على الجزيرة وما بين النهرين، ودخل سوريا عام ٦١٢، واستولى على دمشق عام ٦٢٩، حينذاك أخذ يسعى لإعادة الوحدة الدينيَّة إلى الإمبراطوريَّة، ليوحّد السريان، والأقباط، والأرمن، مع البيزنطيين، واستخدم لذلك أساليب الوعد حيناً، والوعيد والقمع الشديد أغلب الأحيان، فاستشهد منهم عدد لا يُحصى لعدم الانصياع إلى رغبته.

ولم تنتهِ اضطهادات الدولة البيزنطيَّة للكنيسة السريانيَّة إلَّا بظهور

---

(١) أحمد، الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، ص٢٧.

(٢) المخلصي، شهداء الفرس، ص٤ ـ ١٣.

الإسلام، حيث خرجت موجة من الذين دانوه من الجزيرة العربيَّة، وحُرِّرت بلاد المشرق من حكم البيزنطيين والفرس في النصف الأوَّل من القرن السابع للميلاد بالتعاون مع أتباع الكنيسة السريانيَّة ـ سكان البلاد الأصليين ـ الذين كانوا موجودين في تلك المناطق منذ أجيال سحيقة، وكان بعضهم من أبناء القبائل العربيَّة الذين يمتّون بصِلَة الدم، واللّغة، والتاريخ، إلى العرب المسلمين. فلّما دخل العرب المسلمون سوريا، استقبلهم السريان بفرح، واعتبروهم مُنقذين جاءوا ليخلِّصوهم من نير البيزنطيين الذين حاولوا إذابتهم في كنيستهم البيزنطيَّة التي اعتُبرت كنيسة الدَّولة الرسميَّة. فبالتعاون مع العرب المسلمين، تمكَّن السريان من المحافظة على عقيدتهم الدينيَّة، وكرسيّهم الرسولي الأنطاكي، وكنائسهم، وأديرتهم، وتراثهم، وطقوسهم الدينيَّة السريانيَّة[1].

موقف السريان من الفتح العربي الإسلامي

نستنتج ممَّا سبق، أنَّ النزاعات الدينيَّة في الكنيسة المسيحيَّة وتبنِّي السلطة البيزنطيَّة حماية فئة خاصَّة، وفرضها قرارات مجمع خلقيدونيَّة على الكنائس المسيحيَّة بالقوَّة، وإثارتها الاضطهادات العنيفة مِنْ نفي، وتشريد، وسجن، وقتل، كلّ هذه الممارسات غير الإنسانيَّة، خلقت روح الكراهية والنفور في قلوب السريان تجاه السلطة البيزنطيَّة[2]. كما أنَّ السلطة الفارسيَّة كانت تضطهد المسيحيين عامة الذين في مملكتها من سريان غربيين وشرقيين، محاولة إخضاعهم لسياستها المجوسيَّة التعسفيَّة، واعتناق دينها المجوسي. لذلك، فالسريان سواء أكانوا تحت الحكم البيزنطي أم الفارسي، استقبلوا العرب المسلمين الفاتحين

(١) شلبي، أضواء على المسيحيّة، ص٨٦؛ هيل، تاريخ الفكر المسيحي، ص١٥٣.
(٢) يغوليفساكيا، العرب على حدود بيزنطية، ص٣٣.

كمحرّرين، وكانت آمالهم كبيرة بالتخلّص من نَير المحتلين الفُرس والبيزنطيين، ليس من محنتهم الدينية فقط، بل أيضاً من الضرائب الباهظة التي وُضعت على كاهلهم، فقالوا: «نحمد الله الذي خلّصنا من حكم البيزنطيين الظالمين وجعلنا تحت حكم العرب المسلمين العادلين»[1].

حالة العرب الدينية عند ظهور الإسلام

كانت أحوال العرب الدينيَّة مشوَّشة غير منظَّمة، وكان بعض قبائلهم وثنياً صَرفاً، وكان انقسام المسيحيَّة على ذاتها قد شغلها عن الاهتمام بنشر بشارة الإنجيل؛ لذلك، كانت الفرصة سانحة لظهور الإسلام في الجزيرة العربيَّة في ذلك العصر. ولا بدّ أنْ نذكر ها هنا أنَّ بعض سكَّان الجزيرة العربيَّة عند ظهور الإسلام كانوا يتبعون ملة إبراهيم الخليل اسماً لا فعلاً. ويذكر التاريخ أنَّ النصرانيَّة قد دخلت الجزيرة منذ القرن الأوَّل للميلاد، وكانت المسيحيَّة قد انتشرت بقوَّة في عدد كبير من القبائل العربيَّة عبر بادية الشام والعراق، وهُيِّئت لتقبُّل الإسلام بعدئذ، كقبائل ربيعة، وبني تغلب، وبني كلب، كما تنصَّر من اليمن طيء، وبهراء، وسليخ، وتنوخ، وغسان، وغيرها[2].

وكان مذهب آريوس الذي حرَّمه مجمع نيقية عام ٣٢٥م، ومذهب نسطور الذي حرَّمه مجمع أفسس عام ٤٣١م، منتشرين بين المسيحيين هناك[3]. كما كانت المزاعم الدينيَّة غير السليمة لبعض الأحباش من

---

(١) المخلصي، شهداء الفرس، ص١٣ ـ ١٥.

(٢) عبد الحميد، مخطوطة تاريخ ميخائيل السرياني، ص٤٦؛ علي، المفصل في تاريخ العرب، ١٢٧/١.

(٣) عبد الحميد، م.س.، ص٤٨، ابن العبريّ، تاريخ الكنسيّ، ٤٦/١.

الخارجين على معتقدات كنيستهم الأرثوذكسيَّة قد تسرّبت باسم المسيحيَّة إلى بعض مناطق الجزيرة العربيَّة.

واشتهر في الجزيرة العربيَّة في أواخر القرن السادس وأوائل السابع للميلاد قُسّ بن ساعدة الأيادي أُسقف نجران الذي دُعي حكيم العرب، وخطيبها وشاعرها، وورقة بن نوفل بن أسد (توفي حوالى سنة ٦١١م) أُسقف مكَّة، الأرثوذكس. ومهما كانت عقائد أولئك النصارى في الجزيرة العربيَّة. فقد كان لهم تأثير كبير على العرب المسلمين هناك. وعلينا ألاَّ ننسى أنَّ العقائد الدينيَّة الرئيسة في المسيحيَّة والإسلام متقاربة، مثل: الإيمان بالله، خالق السموات والأرض، والإيمان باليوم الأخير يوم البعث، والنشور، والدينونة، والحياة الأبدية، والجنَّة، وجهنم... وإلخ. كما أنَّ حوادث تاريخيَّة دينيَّة لدى السريان ذكرها القرآن الكريم مثل حادثتَي أصحاب الكهف، وأصحاب الأُخدود[1].

فحادثة أصحاب الكهف التاريخيَّة، التي جرت آية للناس فيها، أثبت الله تعالى للعالم أنَّ بإمكانه، وهو الخالق، أنْ يبعث الموتى يوم النشور، قد وصلت إلينا بلغة سريانيَّة أصيلة نثراً ونظماً، وتُعتبر ضمن التقليد السرياني، وقد تناولها المؤرخون السريان كزكريا الفصيح (٥٣٦)، ويوحنا الأفسسي (٥٨٧)، والراهب الزوقنيني (٧٧٥)، وغيرهم، تناولوها بالدرس والتمحيص بأسلوب سهل ممتنع ونزاهة تامَّة. كما نظَّم فيها القديس الملفان مار يعقوب السروجي (٥٢١)، قصيدة سريانيَّة عصماء على الوزن السباعي تقع في أربعة وسبعين بيتاً[2].

كما ذكر القرآن الكريم أيضاً أصحاب الأُخدود وهم الشهداء

---

(١) يغوليفساكيا، العرب على حدود بيزنطية، ص٣٣.

(٢) عبد الحميد، مخطوطة تاريخ ميخائيل السرياني، ص٥٠.

الحميريون عرب نجران النصارى السريان الأرثوذكس مذهباً، الذين اضطهدهم مسروق اليهودي الذي يُدعى ذا نؤاس، وعذّبهم فنالوا إكليل الشهادة، بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾[1].

السريان والفتح العربي الإسلامي

كانت عوامل عديدة نفسيَّة، واجتماعيَّة، وقوميَّة، ودينيَّة، في سوريا البيزنطيَّة، متوافرة لدى السريان، سكان البلاد الأصليين، لاستقبال العرب المسلمين الفاتحين الذين قدِموا من الجزيرة العربيَّة. ذلك أنَّ السريان ـ كما ذكرنا سابقاً ـ كانوا ينوؤون تحت نير الحكم البيزنطي في سوريا، كما كانوا مضطهدين في بلاد فارس. إذ حاول الفرس إخضاعهم لقبول الدين المجوسي مُستخدمين لهذه الغاية كلّ أساليب العنف وسفك الدماء، كما أثقلوا على كاهلهم الضرائب الباهظة. أمَّا السبب الظاهري لإثارة البيزنطيين الاضطهاد العنيف على السريان، فهو رفض السريان قبول قرارات مجمع خلقيدونية (٤٥١م). وإنَّ من وراء ذلك قمع الأفكار التحرريَّة، والوعي القومي، الذي دبّ في صفوف السريان للتخلُّص من نَير المحتل البيزنطي الذي سلب سوريا خيراتها الطبيعيَّة، وخاصَّة حنطتها. فلا عجب من أنْ يتولَّد النفور في قلوب السريان نتيجة ظلم البيزنطيين إياهم، وأنْ يرحبوا بقدوم العرب المسلمين الفاتحين، وأن ستقبلوهم كمحرِّرين للبلاد، خاصَّة وأنّ عدداً كبيراً من القبائل العربيَّة في العراق وسورية كان دينياً سريانيَّاً أرثوذكسيَّاً، ورأت هذه القبائل وجوب تأييد العرب المسلمين الذين يمتُّون إليها بصِلَة الدم، واللغة، والتراث، والحضارة. لذلك، انضمّ أغلبها إلى الجيش العربي المُسلم الفاتح تحت إمرة المثنى بن حارثة، وخاصة قبائل بني تغلب، وبني عقيل، وبني

(١) ينظر: القرآن، سورة البروج، الآية الرابعة.

تنوخ، وبني ربيعة في شمال العراق وغربه، وحاربت جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين. وتمّ القضاء على دولة الفرس في سنة ٦٥١م حينما فرَّ (يزدجرد) آخر ملوكهم إلى ما وراء حدود بلاده. ويذكر التاريخ أنَّ غلاماً مسيحياً سريانياً من بني تغلب قتل المرزبان مهران القائد الفارسي، واستولى على فرسه، وأنشد قائلاً: «أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان». وسارت جيوش الفاتحين إلى سوريا البيزنطيَّة، فدخلت دمشق عام ٦٣٤م، ثم دخلت بيت المقدس سنة ٦٣٧م، وأغارت على مصر سنة ٦٣٨م، فاستولت على الإسكندريَّة، ورحّب بها الأقباط، كما كان الشعب السرياني قد استقبلها بابتهاج عند دخولها سوريا.

السريان في ظلِّ الحكم الإسلامي

بعد أنْ حارب السريان جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين مع المحافظة على نصرانيتهم وحرَّروا البلاد من المحتلين، شاركوا في توطيد أركان الدَّولة الجديدة، ويشهد التاريخ بإنتاجهم الواسع في جميع ميادين الفكر والحضارة. وجاء في كتاب «عصر السريان الذهبي» ما يأتي: «احتظى السريان بالثقة والاحترام عند الخلفاء الراشدين (٦٣٢ ـ ٦٦١م)، والخلفاء الأمويين (٦٦٢ ـ ٧٤٦م)، والعباسيين (٧٥٠ ـ ١٢٥٨م). وأوَّل من نال القربى لديهم حين الفتح العربي هو منصور بن يوحنا السرياني، الَّذي أصبح وزيراً للمالية في عهد الخلفاء الراشدين. أمَّا ابنه سرجون، وحفيده يوحنا المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي (٧٤٩م)، فقد تولّيا ديوان الأعمال والجبايات في عهد الخلفاء الأمويين»[1].

---

(١) رشدي، تاريخ ميخائيل السرياني، ص٨؛ علي، المفصل في تاريخ العرب، ١/ ١٣٢.

معاملة الخلفاء العرب المسلمين للسريان وسائر المسيحيين

كان للسريان مكانةٌ مرموقةٌ لدى الخلفاء الراشدين ثمَّ الخلفاء الأمويين الذين استخدموا العديد من السريان في الدواوين، وابتدأت على عهدهم النهضة العلميَّة العربيَّة، الَّتي أسهم بها علماء السريان وكتّابهم، وترجموا علومهم وعلوم اليونان إلى العربيَّة، ونالوا مراكز عالية في الإدارة، وشغلوا وظائف مرموقة.

فالخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥م) ولّى أثناسيوس برجوميا السرياني الرُهاوي الإدارة المالية في مصر، فأحسن هذا التصرُّف في الوظيفة، وكان عهده عهد بركة وإقبال على الدَّولة الأموية[١].

وكتب مروان الخليفة (٧٤٤ ـ ٧٥٠م) فرماناً سنة ٧٤٦ للبطريرك إيونيس الرابع (٧٤٠ ـ ٧٥٥م) يخوّله بموجبه الولاية على جميع الشؤون البيعة، وهو أوَّل فرمان من نوعه يُعطى للبطريرك السرياني؛ ومنذ ذلك الحين، سرت تلك العادة. ومن الأمور المهمّة في هذا العصر، نقل الإنجيل المقدس من السريانيَّة إلى العربيَّة على يد البطريرك يوحنا أبي السدرات (٦٤٨م) بناءً على طلب الأمير عمير بن سعد بن أبي وقاص، أمير الجزيرة، الذي اشترط على البطريرك أنْ يستثني من الترجمة ما يختصّ بلاهوت المسيح، وصلبه، والمعمودية، فأجابه البطريرك ببساطة: «معاذ الله أنْ أحذف أو أزيد حرفاً واحداً من الإنجيل المقدَّس، ولو صوّبت نحوي كلّ حراب جيوشك وأسنّتها». فأُعجب الأمير من بسالته، وفوّضه بالترجمة كما يريد، فجمع عدداً من

---

(١) رشدي، م. س.، ص٩؛ عطية، تاريخ المسيحيّة الشرقيّة، ص٢٤٥؛ مراد، تاريخ الأدب السرياني، ص٤٦؛ أبونا، تاريخ الكنيسة السريانيَّة، ٢/ ١٥.

الأساقفة، واستحضر علماء بكِلتا اللغتين السريانيَّة والعربيَّة من بني تنوخ، وعقيل، وطيء، وترجموا الإنجيل المقدَّس إلى العربيَّة بإشرافه، فقدّمه بدوره إلى الأمير.

وفي عهد الخلفاء الأمويين، ذاع صيت الأخطل الشاعر العربي المشهور، وهو تغلبي من أبناء الكنيسة السريانيَّة الأرثوذكسية، ولد ونشأ في الجزيرة الواقعة في الجزء الأعلى من وادي دجلة والفرات بين العراق والشام، ونال حظوةً لدى الخلفاء الأمويين، حتى أنَّ الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥/ ٧٠٥م) لدى سماعه قصيدة «خفّ القطين» التي يمدحه الأخطل فيها قال له: «ويحك يا أخطل، أتريد أنْ أكتب إلى الآفاق أنّك أشعر العرب»، قال: «أكتفي بقول أمير المؤمنين»[1].

(١) رشدي، م.س.، ص٩؛ علي، م.س.، ١/ ١٣٤.

المقدمة

تُعدّ المصادر التاريخيّة السريانيّة ثروةً حقيقيّة للباحثين في التاريخ الإسلاميّ، فهذه المصادر توفّر رواية حياديَّة إلى حدٍّ ما بين الروايتَيْن الإسلاميّة بمختلف تشعباتها، والبيزنطيّة المقتضبة[1].

ومع أنّ الرواية السريانيّة عن التاريخ الإسلاميّ تُعاني من بعض الثغرات العلميّة، إلّا أنها بالمقارنة مع الروايات الأخرى المتوفِّرة تُعدّ من أكثر المصادر تماسكاً وانسجاماً، نظراً إلى أنّ السريان دوّنوا الأحداث في أوقاتها، وقد توفَّر لهم أكثر من مؤرِّخ عاصر الدَّولة الإسلاميّة، فدوّنوا ما وصل إليهم عَبْرَ وسائل مختلفة، منها الأخبار، والتقارير والرسائل الكنسيّة الّتي يرويها الأساقفة ورجال الدين، أو من خلال العرب المسيحيّين والسريان الذين شاركوا العرب في مراحل حياتهم.ولذلك، فإنّ الروايات السريانيّة تحظى بكمٍّ كبيرٍ من المِصْداقيَّة كونها ابنة زمنها، وجرى الحفاظ عليها بالتدوين. وشكّلت مصدراً مهماً للكثير من المؤرِّخين العرب، ويبدو أنَّ تأثيراتها واضحة في تاريخ الطبريّ، وكذلك في مؤلفات المسعوديّ[2]. لذا سوف ندرس كتابَيْن من أهمِّ كُتُب التاريخ عند السريان والمسلمين هما: تاريخ الرُّسُل والملوك للطبري، وتاريخ ميخائيل الكبير للبطريرك ميخائيل الكبير السريانيّ.

---

(١) كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلاميّة المبكرة، ص١٧.

(٢) خربطلي، دور السريان في نقل أخبار العرب، ص٣٦.

من أجل ذلك كان حرصي على دراسة تاريخ ميخائيل الكبير وإجراء مقارنة مع أهم تاريخ إسلاميّ هو تاريخ الرُّسُل والملوك للطبري، وذلك يسمح لي بتزويد المكتبة العربيّة برأيٍ جديدٍ كان صاحبه من غير المسلمين ولا يقدّس ما يقدّسه المسلمون، وكان حرّاً في ما كُتُب وجريئاً في ما اعتقد وناقداً لما جمع من مادة.

ويُعدّ تاريخ ميخائيل الكبير من كُتُب القرن الثاني عشر الميلاديّ، كتبه مؤرِّخ له شأن في هذا القرن، وجرى فيه على نحو ما جرى المؤرِّخون المعاصرون والسابقون له في شيء من هذه الكتب. أعني أنه ضمَّن كتابه تلك الأزمنة التاريخيّة الّتي لم يجد المؤرِّخ بُدّاً من أنَّ يضمِّنها كتابه. وكان يرى كلّاً منها أشبه ما تكون بفاتحةٍ للكتاب أو مقدمةٍ له فكانوا يضعون في كتبهم تاريخاً مُجملاً أو مُختصراً للكلام عن بدء الخليقة.

والجزء الذي قُمت بدراستهِ وتقويمهِ هو الجزء الخاص بعصر صَدْرِ الإسلام والعصر الأمويّ. وقد أثار اهتمامي لأنَّه يؤرّخ لحقبةٍ زمنيةٍ لها شأنها في التاريخ الإسلاميّ خاصة، باعتبارها تُمثّل عهداً جديداً له خصائصه المميزة في التاريخ الإسلاميّ، كما أن ميخائيل الكبير لم يعتمد في تاريخه على أي مصدر، من المصادر العربيّة الإسلاميّة.

ومهما كَثُرت المصادر المستحدثة وطال الحديث عن تاريخ المسلمين فلا يزال العقل البشري في شوقٍ إلى سماع المزيد وبخاصة إذا كان الحديث يجري على لسان غير إسلاميّ، ذلك ما ينقُصنا، فالمؤلفات الإسلاميّة ازدحمت وملأت علينا تلك الفترة بأحاديثها الكثيرة المختلفة، ولكننا إلى اليوم لا يزال ينقُصنا الكثير ممَّا كُتِبَ من غير المسلمين عن المسلمين. من أجل ذلك كانت اللهفة إلى دراسة تاريخ ميخائيل الكبير ومقارنته مع تاريخ الطبريّ الذي يُعتبر من أهم التواريخ الإسلاميّة .

ونحن نعلم أنَّ ميخائيل الكبير لم يُضف مادة جديدة، إذ إنَّه لم يكُ معاصراً، أو قريباً من تلك الحقبة السالفة، فالمادَّة التاريخيَّة قد استوت في الكُتُب العربيَّة التي لم يختلف منها شيء، ولكن الذي اختلف على الفكر العربي هو النظر ـ في تلك المادة بعد جمعها ـ نظرةً فاحصةً منقِّبة، ناقدة، متعمِّقة. ونكاد لا نجد تلك النظرات بين كتَّابنا الإسلاميين، فنحن لا ننكر أنَّهم وقفوا عند مرحلة الجمع، ولم يتعدوها إلى غيرها إلاَّ عدداً قليلاً منهم، في حين نجد المؤرخين غير المسلمين قد جاوزوا مرحلة الجمع إلى مرحلة تحليل ونقد الأحداث التاريخيَّة.

ولعلّ من أهم دوافعي لاختيار هذا الموضوع هو أنَّ ميخائيل الكبير يورد الأحداث متسلسلة متتابعة ووفق الترتيب الزمني من دون أن يعتمد على روايات كثيرة متعارضة تجهد القارئ ولا تنتهي به إلى وضع ثابت يمكن الاعتماد عليه، وذلك بالنسبة إلى حادث بعينه، كما درجت عليه كُتُب التاريخ الإسلاميّ.

إنَّ السريان أرسخ قدماً من العرب في تدوين التاريخ[1]، باعتبار أن العرب دوّنوا تاريخهم عن طريق جمع الروايات الشفويّة، وأخذ الجيل الأوَّل الذي شاهد هذه الحوادث واشترك فيها يعمد إلى روايتها ثم نقلها عنه الجيل الثاني. فقد أخذ الباحثون في هذا الجيل في جمع أخبار الحادثة الواحدة عن الرواة المختلفين، ثم ضمّوا هذه الروايات بعضها إلى بعض ودوّنوا ذلك في كراسة أو رسالة وكان ذلك في القرنَيْنِ الأوَّل والثاني للهجرة، واشتهر من هؤلاء جماعة منهم سيف بن عمر الكوفي والمدائني والزبير بن بكَّار، ولم يكن تأليف هذه الطبقة مرتباً بوجهٍ عام ولا شاملاً وافياً، وإنما كثُر الترتيب والتنظيم في الطبقة الّتي جاءت

(١) ينظر: الرسالة، ص١٧٥.